

(١)

**خطورة التكفير والفتوى بدون علم
وضرورة الاصطفاف في مواجهة الإرهاب**

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ
الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه
وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، **وبعد:**

فإن الدين الإسلامي الحنيف أمر أتباعه بالوسطية والاعتدال، ونهاهم عن الغلو
والانحلال، يقول الحق سبحانه: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }، والوسطية تعني: العدل والاعتدال، والبعد عن
كل مظاهر الغلو والتشدد، فلا إفراط ولا تفريط، لا غلو ولا تشدد في الإسلام، وقد
أوصى نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالقصد والاعتدال في كل أمور الدين والدنيا،
فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يَسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،
فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّبْجَةِ)، وقال (صلى
الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ).

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام شرقاً وغرباً،
وارتفعت رأيته بسماحته ويسره؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان السوية، وبما
جُبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين.

وجدير بالذكر أن تعاليم الدين الإسلامي تحارب التطرف والتعصب، وتنبذ كل
مظاهر العنصرية البغيضة، وهذه هي الوسطية في أكمل معانيها، والتي شرف الله

(٢)

(عز وجل) بها أمة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فجعلها أمةً وسطاً بين سائر الأمم.
ولقد حذر النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) من الغلو في الدين، ونهى أصحابه
عن المبالغة التي تخرجهم عن حد الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفُ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوفُ فِي الدِّينِ، إِذَا
فليس في ثقافة الإسلام ولا تعاليمه ما يدعو إلى الغلو والكراهية.
ومن الآفات التي ابتلي بها الإسلام وهو منها براء : آفة الفكر التكفيري المتشدد ،
الذي يدعو لسفك الدماء البريئة بغير حق ، واستهداف للأمن والأمان والاستقرار ،
ويرفض التعايش السلمي الذي دعا إليه الدين الإسلامي الحنيف ، وسبب نشأة هذا
الفكر المتطرف هو الجهل بتعاليم الإسلام ، واتباع أناس جهال ضلوا وأضلوا بغير
علم، أو أصحاب مصالح خاصة يوظفون الدين لمصالحهم وأهوائهم ومطامعهم
السلطوية ، على أن من يسلك هذه المسالك التكفيرية أو التخريبية أو يقدم على
الفتوى بدون علم لن يجني إلا حسرة وندماً وسوء عاقبة .
ومن المظاهر السيئة لهذا الفكر المتطرف الدعوة إلى تكفير الحكام ، والشعوب ،
والمجتمعات ، والعلماء الوسطيين ، مع أن الإسلام نهى عن الإسراع في تكفير الناس
أو الولوج فيه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

وكما حذر القرآن الكريم من رمي الناس بالكفر ، حذرت السنة النبوية أيضاً من
الوقوع فيه ، لأنه لا يسلم منه من خاض فيه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّمَّا

(٣)

امْرِي قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلَّا رَجَعْتُ عَلَيْهِ) أَي: إذا قلت لإنسان يا كافر فإنه يتحمل إثمها ، إما أنت أو هو ، فإن كان من قبيلت له ليس كذلك رجع ذلك الإثم على القائل ، فاحذر أن ترمي بها غيرك حتى لا تكون كافرًا بعد إسلامك.

إن الولوج في تكفير الناس له آثاره المدمرة على الفرد والمجتمع ، فهو يشوه صورة الإسلام ، ويشوه سماحته ووسطيته ، ودعوته للتعايش السلمي ، وإقراره للسلم والأمن المجتمعي والعالمي ، كما أنه يؤدي إلى النفور من الإسلام ، والصدّ عن طريقه. والذي عليه أهل العلم الموثوق بهم أن الحكم على شخص معين بالكفر لا يثبت إلا بحكم قضائي نهائي وباتّ بعد أخذ رأي المؤسسات الدينية وسماع شهادتها في القضية.

وأما ضرره على المجتمعات فإنه يشتت الكلمة ويفرق الصف ، ويغرس العداوة والبغضاء في النفوس ، ويؤدي إلى نشر الفوضى ، وترويع الآمنين ، ويخالف ما دعت إليه الشريعة من التعاون والتآلف ، ويغلق باب التناصح والدعوة إلى الله تعالى بالتي هي أحسن.

كذلك من آثار التكفير المدمرة على المجتمعات: استحلال سفك الدماء المعصومة المحرمة ، لأن التكفير يؤدي حتمًا إلى التفجير ، والشريعة الإسلامية جاءت بالمحافظة على الأرواح عمومًا لا فرق بين مسلم وغيره ، فحرمت سفك الدماء بغير وجه حق ، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وحرم النبي (صلى الله عليه وسلم) الاعتداء على غير المسلمين ، من شركاء الوطن ، أو ممن لهم عهدٌ وأمان من المقيمين ببلادنا ، أو السائحين الذين

(٤)

يزورونها ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)، وقد وصّف النبي (صلى الله عليه وسلم) ما نحياه الآن وصفًا دقيقًا ، وتبرأ من هؤلاء الذين يسفكون الدماء بغير وجه حق ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصْبَةِ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ).

كذلك من آثار التكفير المدمرة: استحلال الأموال التي نهى الله تعالى عن أخذها بغير وجه حق ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} ، وقد أخبر نبينا (صلى الله عليه وسلم) أنه خصيم لمن ظلم غير المسلم ، أو انتقصه في مال ، أو عرض ، أو أي شيء ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ، أَوْ انْتَقَصَهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا يَغْيِرُ طَيْبَ نَفْسٍ ، فَإِنَّا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

كذلك من آثار التكفير المدمرة : استحلال الفروج والأعراض المحرمة ، مع أن القرآن الكريم قد حرمها ، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} ، والحكمة في ذلك: أن الاعتداء عليها يفسد الود والمحبة ، ويقطع أواصر الترابط والتشابك بين أفراد المجتمع ، ويؤدي إلى أمراض اجتماعية وقلبية عديدة كالكرهية ، والهجر ، والشحناء ، والبغضاء ، والحقد ، والغل ، والحسد ، ومن ثم كان النهي عن تكفير المسلمين جزافًا بدون علم أو سند شرعي واضحًا صريحًا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

(٥)

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن التكفير بما يترتب عليه من مخاطر وأضرار سببه الفتيا بغير علم ، والتجروء على دين الله (عز وجل)، واستخدام بعض الجماعات وعناصرها المتطرفة الدين لتحقيق أغراض ومآرب ومصالح خاصة لا علاقة لها بالدين ولا بالإنسانية ، ومن ثم كان النهي عن التسرع في الفتيا بدون علم أو سند شرعي، قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، وقال (صلى الله عليه وسلم): {مَنْ أَفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ} ، أما يعلم هذا الذي يفتي بغير علم أن الله سائله عما قال يوم القيامة ؟ أفلا يعلم أنه إذا أضلَّ شخصاً فأحل له ما حرم الله أو حرم ما أحل الله له فقد باء بإثمه وكان عليه مثل وزر ما عمله من إثم بسبب فتياه؟ قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقد كان أكابر الصحابة العلماء الربانيون يتخرجون من الفتيا، لعلمهم بخطورتها، فهي هو الصديق أبو بكر (رضي الله عنه) يقول: (أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)، وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أحسنها، فقال له أصحابه: قد استحيينا لك ، فقال لكن الملائكة لم تستح حين قالت: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}.

إن الفتوى بغير علم جرأة على الله (عز وجل)، وكذب وافتراء عليه ، وعلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وتعرض صاحبها للخسران يوم القيامة ، وتوقع الناس في

(٦)

المشقة والحرَج ، وتُعسر عليهم أمر الدين ، وتُحجب عنهم سماحته ، ووسطيته ، وقد كان السلف الصالح (رضوان الله عليهم) يتخرجون من الفتيا لخطورتها ، يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُسألُ أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول.

وعلاج هذه الظاهرة يتمثل في توعية المجتمع المسلم بكافة أطرافه ، وأن نوضح له خطر هذا المنهج وضرره في الحاضر والمستقبل ، وأن نعالج الأفراد الذين وقعوا فيه بأن نزيل عنهم الشبهة والغشوة التي طرأت عليهم ونوضح لهم الحق عن طريق التوعية الصادقة والنصيحة الهادفة ، فكم من أناس انخدعوا واغترتوا بدعاة ظنوا أنهم على خير وأنهم محقون ؛ لكنهم على باطل وضلال ، فساءت أفهامهم وقلَّ إدراكهم ، فلا بد من توجيههم وإزالة كل الغشوة التي علقَت بأذهانهم.

كما ينبغي أيضاً عدم السماح لغير المؤهلين وغير العلماء المتخصصين في الدين بالفتوى ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ إِنْزَاعًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ بِعِلْمِهِمْ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا ، فَقَالُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).

على أن التكفير قد يخرج إلى التفجير ، واستهداف الآمنين وترويعهم ، مما يجعلنا نؤكد أن كل الدماء معصومة ، وكل الأعراس مصانة ، وكل الأموال محفوظة ، فالاعتداء على أي منها إثم عظيم يعرض صاحبه لسخط الله (عز وجل) وغضبه ، حيث يقول الحق سبحانه : { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيِرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } ، ويقول نبينا (صلى الله

(٧)

عليه وسلم): (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا).
ويجعلنا نؤكد أيضاً أنه لا بد من استخدام العقاب الرادع لأصحاب هذه الدعوات
التكفيرية والتخريبية الذين يعيشون في الأرض فساداً ، فشدة العقوبة هدفها منع
الجريمة، وتركهم بدون رادع يزيدهم جرأة على دين الله (عز وجل) وعلى خلقه،
ومن ثمَّ أوجبت الشريعة الإسلامية على الأفراد والمجتمعات أن يقفوا بحزم وحسم
أمام هذه الأفكار الضالة، وأن يواجهوا أصحابها بكل ما أوتوا من قوة ، يقول (صلى
الله عليه وسلم): (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ يَدِيهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ
اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ).

ونؤكد أن من أعان أصحاب هذا الفكر بنشره أو الرضا به ، أو التشجيع عليه أو
تستر عليهم فهو شريك لهم في الإثم أمام الله (عز وجل) والمجتمع كله، وقد نهى الله
(تعالى) عن ذلك بقوله: {وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، وقال (صلى الله عليه
وسلم): (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ ، وَهُمْ
قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ).

ما أحوجنا إلى اصطفاة وطني لمواجهة الإرهاب الغاشم وكل قوى الشر والظلام
التي تهدم ولا تبني ، وتخرب ولا تعمر ، وطبعت قلوب أصحابها على الشر والإفساد ،
مما يتطلب منا جميعاً التكاتف والتعاون لاستئصال قوى الشر ، والعمل على نشر
سماحة الإسلام، وترسيخ أسس المواطنة الكاملة والعيش الإنساني المشترك ، وتحقيق
الحياة الكريمة الآمنة لكل الناس، بعيداً عن كل ألوان التكفير والتفجير والتخريب.
نسأل الله تعالى أن يجعل مصرنا أمناً آمناً ، سخاءً رخاءً وسائر بلاد العالمين.